

زيارة النبي ذي الكفل تحتاج إلى أكثر من وقفة

< تحقيق وتصوير:
وليد عبد الأمير علوان

عندما حَرَكَ الرتل الأمريكي، والمسمّى بـ"الرتل الجنوبي"، من مدينة النجف الأشرف، آجَاه العاصمة بغداد، ليلة سقوطها، لم يتوقف طيلة المسافة بين المدينتين، والتي تبلغ 170 كم، إلا في منطقة الكفل، حيث ترَجَّل العديد من أفراد أطقم دباباته، وتوجهوا مباشرة لزيارة مرقد نبي الله ذي الكفل، المدفون فيها، وجَولوا في المناطق المحيطة بالضريح، وقاموا بالتقاط الصور التذكارية، في غياب شبه تام لأهالي هذه الناحية الصغيرة، الذين غادروها آجَاه البساتين المحيطة بها، ويظهر أن هؤلاء الزوار الغرباء، كانوا على معرفة تامة بالشخص المدفون في هذه المدينة.



A view from the roof of the shrine

منظر من سطح المرقد



باب الدخول
إلى المرقد
The entrance
to the shrine

تاريخ المدينة

تقع ناحية الكفل شمال شرقي مدينة النجف الأشرف، ولا تبعد عنها سوى مسافة 30 كم، وهي منطقة زراعية، تشتهر بزراعة النخيل وتربية الأغنام، ومحاطة ببساتين وحقول زراعية، وقيل في تسميتها أنها جاءت من اسم صاحب المرقد المدفون فيها، والذي قيل أنه يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل (عليهم السلام)، الملقب بذي الكفل، وقد قيل في تسميته بـ"ذي الكفل"، أنه كفل الشعب اليهودي فأجأهم من البابليين، أو أنه كفل سبعين نبيا وأجأهم من العذاب، وهو من أنبياء بني إسرائيل، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الأنبياء (وإسماعيلَ وَإِدْرِيْسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) (الآية/85)، وقيل إنه النبي حزقيال (ع)، وقيل أيضا إنه كان رجلا صالحا ولم يكن نبيا، إلا أن الأرجح أنه الابن الأكبر لنبي الله يعقوب (ع)، وهو الذي أشار على إخوته بأن يلقوا أخاهم يوسف الصديق (ع)، في الجب لما أرادوا قتله. لقد قيل في تاريخ المدينة إن اسمها كان (بر ملاحه)، وكما ذكر ذلك ياقوت الحموي، وقد كان اليهود يقيمون في هذه المدينة منذ القدم، ويحتمل وجودهم فيها منذ أيام الكلدانيين، وبقوا فيها حتى الفتح الإسلامي، وتأسس

عن هذه القبور بمسافة أربعة أمتار، وقبره على شكل مدرج داخل إيوان صغير، وتكسو هذه القبور قطعة قماش لونها أخضر. وهناك أيضا، وفي غرفة مستقلة، مقام الخضر (ع). علما إننا وجدنا أكثر من مقام للخضر (ع). في أكثر من ضريح ومدفن. وتعلو هذا المرقد قبة عالية الارتفاع، تحتوي على نقوش جميلة، لكن علاها الغبار حتى أصبح من العسير تمييز الألوان الموجودة في تلكم النقوش بشكل واضح. ◀

مستوى أي ضريح من أضرحة الأنبياء، والأئمة، والأولياء، المدفونين في أرض الرافدين. يوجد في الغرفة المجاورة لغرفة الضريح، والتي لا يفصل بينهما سوى جدار بسيط، قبور خمسة لأصحاب ذي الكفل، وهم: باروخ، يوسف الريان، يوشع (هو غير يوشع المدفون في برانا في بغداد)، خون ناقل التوراة، ويوحنا الرملجي. وإن أربعة من هذه القبور هي على نسق واحد، ويبعد كل قبر عن الآخر مسافة متر واحد. أما قبر باروخ، فهو يبعد

الكوفة، وكانت لهم علائق مع يهود الحيرة. وكانت الكفل من المناطق القديمة، وإن القدسية التي حظيت بها هي بسبب وجود مرقد النبي ذي الكفل، مع العديد من أحبار اليهود. أما بالنسبة لتاريخ بناء المرقد فإنه كان موجودا في أيام المغول، حيث تولى المسلمون بناءه وإنشائه.

المدينة والمرقد

يخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال شارع رئيسي، تتوزع عليه محلات تجارية، وأرصفة، ومقاهي، وعربات الباعة المتجولين، وهي مدينة صغيرة لا توجد فيها مظاهر للعمران والحداثة. وقبل الوصول إلى مشهد ذي الكفل فإنك تجتاز السوق القديم، الذي هو الطريق الرئيسي إلى مرقد ذي الكفل. السوق من الطراز المعماري الإسلامي، الذي كان سائدا في العصور القديمة، ويحتوي على خانين، هما خان قريش وخان السيف. ويعود بناؤه إلى بدايات القرن العشرين، وقد شيد من قبل اليهودي (مناحيم دانيال)، الذي كان له تأثير على السلطان العثماني، وتبرز أهمية السوق والخانين من خلال الأقواس المدببة، والعقود، والقباب، والأواوين، والمقرنصات، التي كانت سائدة في العمارة العراقية القديمة، ويسمى هذا السوق بـ"سوق دانيال".

في نهاية السوق، وعلى الجانب الأيسر، هناك مدخل واسع، ذو باب خشبي كبير قديم جدا، يشرف على إيوان ذي قبة كبيرة، وممر يؤدي إلى المرقد. يشكّل مرقد ذي الكفل الضلع الشرقي للبناء، أما الأضلاع الأخرى، فهي عبارة عن غرف لا يستطيع الشخص الدخول إليها، إلا بانحناءة بسيطة. تتوسط هذا المشهد ساحة بسيطة، وممرات، ويقصد هذا المشهد بعض أبناء المنطقة للصلاة فيه، ويتم الدخول إلى غرفة الضريح من خلال باب، تعلوه زخارف نباتية ملونة، وغرفة الضريح مستطيلة، ويقع القبر في وسط الغرفة، ويعلوه صندوق من خشب الصاج العادي، مغطى بقطعة من القماش. أما جدران الغرفة فهي مكسبة بطبقة من الجص، أما سقفها فيحتوي على نقوش وزخارف إسلامية، إلا أن الضريح والغرفة لا يرقيان إلى



Daniel's market near the shrine

سوق دانيال المجاور للمرقد



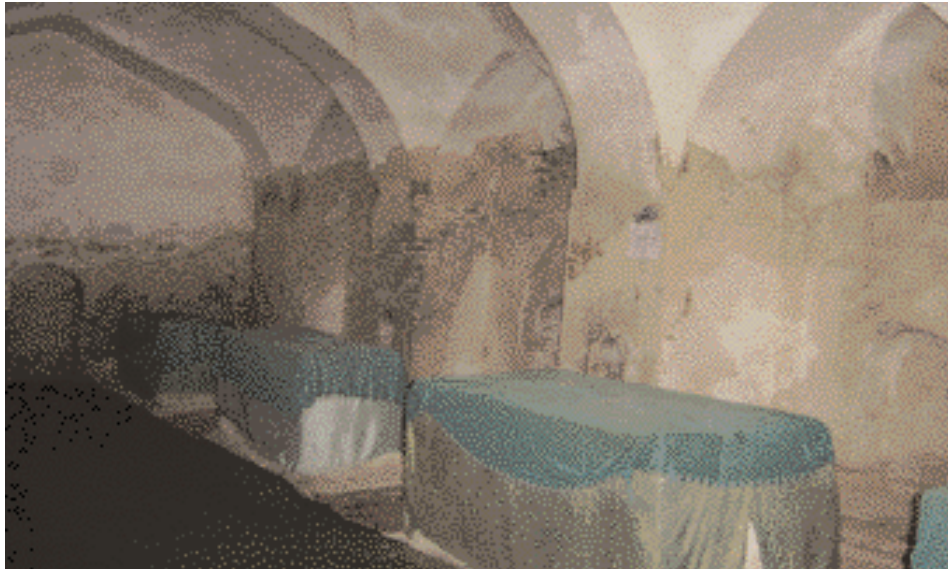
The mausoleum of Zul Kifl

مرقد النبي ذي الكفل



The hall leading to the tombs of Zul Kifl's companions

الإيوان المؤدي إلى قبور أصحاب ذي الكفل الخمسة



The tombs of Zul Kifl's companions

قبور أصحاب ذي الكفل



Al-Khider site

مقام الخضر

آثار مسجد النخيلة

قيل إن هذا المسجد، هو المكان الذي صلى فيه الإمام علي بن أبي طالب (ع). عند خروجه إلى معركة صفين، وكذلك عند خروجه إلى حرب الخوارج في النهروان. ومن هنا جاءت قدسية هذا المسجد. والذي كان مسجدا عامرا تقام فيه الصلاة، إلا أنه لم يبق لمسجد النخيلة اليوم من بناء تام، فهو عبارة عن أطلال وآثار، فجدرانه الأربعة مهدمة، وباحته متروكة، وبئره مردوم، ولم يبق منه سوى المئذنة الشاهقة الارتفاع. ويقع هذا المسجد بصورة ملاصقة لمقعد النبي ذي الكفل، حتى يخيل للزائر أنه جزء منه.

يقال إن اليهود هم الذين ساهموا في العمل على تقويض هذا المسجد، حيث كان في المسجد منبر كبير عال من الصخر، وقد حفر اليهود إلى جنبه حفيرة وأردوه فيها، وسووا عليه التراب، ولا يزال موجودا تحت الأرض.

ويبدو من المصادر التاريخية إن اليهود وضعوا أيديهم على هذا المسجد، وبنوا فيه مخازن، وغرفا، وبيوتا، بأوى إليها الزائرون منهم في أعيادهم الدينية، بعد أن أنفقوا المبالغ الطائلة في ذلك، ومنها تقديم الرشوة إلى الولاة العثمانيين في بغداد، واستطاعوا أن يشتروا أملاكاً وعقارات في المنطقة المحيطة بالمقعد، ومنها السوق المؤدي إلى المقعد، المسمى بـ"سوق دانيال".

وقد نهض أهل المنطقة من المسلمين لمنع اليهود من التجاوز على الأوقاف الإسلامية، كون أن المدينة إسلامية، بدليل وجود مسجد، ومنبر، ومحراب إسلامي، ومنارة يؤذن عليها. وقد أنكر اليهود وجود ذلك، وحصل نزاع، ورفع الأمر إلى السلطان العثماني، الذي أوفد لجنة لحل النزاع، واستيضاح الأمر، إلا أن اللجنة عند وصولها إلى بغداد، توصل إليها اليهود بالمال، فأبدت في تقريرها عدم وجود منارة، دون أن تصل إلى المنطقة.

وقد أصبحت قصة إنكار منارة مسجد النخيلة- منارة الكفل- في ما بعد، من المثل السائر بين الناس، يستخدمونه للدلالة على التعجب من ينكر أمراً، بيناً واضحاً، ويقولون للمنكر أمراً ما: "منارة الكفل". ■